



دَوْلَةُ الْإِسْلَامِيَّةِ

مجلة علمية سنوية محكمة

العدد الرابع / ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

التحولات الفكرية عند الإمام الغزالي

د. محمد مصطفى محمد صالح

الأستاذ المساعد بكلية الآداب - جامعة الخرطوم

يصدرها قسم الدراسات الإسلامية ، كلية الآداب ، جامعة الخرطوم - قسم الثقافة الإسلامية بإدارة مطلوبات جامعة الخرطوم

المستخلص :

لقد مرّ الإمام أبو حامد الغزالي بمجموعة من التحوّلات الفكرية الكبرى خلال مسيرة حياته العامرة بالنشاط العلمي والفكري. بدأ الغزالي بحالة من الشك في المعرفة البديهية التي يصل إليها الفرد بحواسّه ، وبعقله ، وعانى في هذه المرحلة معاناةً بالغة الخطورة كادت تؤثر على يقينيّاته. وخرج الغزالي من تلك المرحلة الخطيرة عن طريق العون الربّاني حيث أخبر بأنه خرج من مرحلة الشك ” بنور قذفه الله تعالى في قلبه “. وبعد خروجه من أزمته المعرفية الأولى بدأ مسيرة النظر والبحث عن الحقيقة ؛ فكان أن عكف على مجموعة المنظومات الفكرية والمعرفية التي كانت سائدة في العالم الإسلامي في الحقبة التي عاشها الغزالي. اهتمت الورقة بصورة خاصة عند هذه المنظومات الفكرية التي وقف معها الإمام الغزالي ، وفصلت موقفه منها ، وركّزت على بيان موقفه من التصوّف ، ومن التعليمية الباطنية القائلين بضرورة اتباع الإمام المعصوم ، وبيّنت خطأ من زعم بأن الغزالي تتلمذ على بعض شيوخ الإسماعيلية. وخلصت إلى موقف الغزالي من ” النبوة “ التي لجأ الغزالي إليها بحسبانها الحل الفكري والمعرفي الذي أخرجه من دوائر الشك المتلاحقة التي عانى منها.

Abstract:

Through his lifetime, Imam Ghazali witnessed many changes in his cognitive attitude towards many aspects of human life, like the source of knowledge, and the credibility of his knowledge about everything.

This situation caused him to fall in doubt and lack of certainty until God guided him by a light that was thrown into his heart. The paper accompanied Ghazali in his intellectual journey among many cognitive groups till he adopted the straight path of the prophethood. The paper depends, mainly, on his famous book [The Saviour from Aberration].

تمهيد :

يعتبر الإمام أبو حامد الغزالي علماً فكرياً من أعلام المسلمين البارزين ، واعتبره الكثيرون مجدداً للدين في المائة الهجرية الخامسة. وتقف مؤلفاته العديدة في شتى صنوف المعرفة الإسلامية الثقلية منها والعقلية شاهداً على رسوخ قدمه في كثير من هذه العلوم. ومعلوم أن أبا حامد الغزالي قد اختلفت حوله الآراء ؛ فمن معجب به منوّه بمكانته العلمية معتبراً إيّاه حجة للإسلام ، ومن قادح له ، وعائب لدوره العلمي والفكري. ولعل سبب هذا الاختلاف حوله يعود إلى التحوّلات الفكرية ، والتقلّبات العديدة التي ميّزت حياته. والمقال الذي نحن بصده الآن يتّصل بهذه التحوّلات الفكرية التي امتازت بها حياة الإمام أبي حامد الغزالي ، ويحاول من ثمّ عرضها ونقدها. وإنّه لمن اللازم علينا قبل الوقوف مع أفكار أبي حامد الغزالي أن نقف في عجالة مع سمات الفكر الإسلامي في صورته المبكرة والتي تعتبر ضرورية لفهم أبي حامد الغزالي.^(١)

الفكر الإسلامي المبكر :

كان نزول القرآن تحوّلاً جذرياً في تاريخ الفكر الإنساني ؛ فلقد أكّد هذا النزول على أهميّة العلاقة بين الطبيعة من جهة ، وبين عالم ما وراء الطبيعة من جهة أخرى. وهذه العلاقة تعني التّواصل بين عالم الغيب وعالم الشّهادة ، وتؤكد الرّسالة الإسلامية على أن هذا التّواصل هو الذي يضبط المسيرة الفكرية الإنسانية. وبرغم أن الفكر الإسلامي خلال فترته المبكرة قام على أساس النّقل عن الوحي مؤكّداً في ذات الوقت على أهميّة دور العقل ومكانته في ميدان فهم نصوص الوحي ، وفي مجالات تطبيقها في واقع الحياة ، وبرغم أن هذا الفكر في مرحلته المبكرة تلك لم يستشعر تناقضاً وتضاداً بين معطيات النّقل وقواعد العقل ؛ نقول برغم ذلك فإنّ الفترات اللاحقة من مراحل الفكر الإسلامي شهدت بروز أشكال من التناقض بين العقل والنّقل في تصورات الكثيرين من المفكرين الذين عرفتهم السّاحة الفكرية الإسلامية. ولعلّ الجدل الذي دار حول العقل والنص ، وحول تقديم أحدهما على الآخر يدلّ بوضوح تام على عمق تلك الأزمة الفكرية. ولعلّ مرّة تلك الأزمات الفكرية يكمن في أن العالم المحيط بالمسلمين آنذاك كان يعجّ بفلسفات متعددة خاصة تلك التي عرفت بها بلاد فارس ،

^(١) انظر تاج الدين بن عليّ بن عبد الكافي السّبكي ، طبقات الشّافعية الكبرى ، تحقيق د. محمود محمد الطّناحي ود. عبد الفتّاح محمد الحلّو ، هجر للطباعة والنّشر والتّوزيع ، ١٤١٣ هـ ، ج ٦ ، ص ١٩٤ وما بعدها.

وبلاد الهند ، وتلك التي عرفتها أثينا والإسكندرية ، هذا بالإضافة إلى مراكز الثقافة الأخرى المحيطة بالمسلمين مثل أنطاكية وحرّان ونصيبين وغيرها.^(٣١) وإلى جانب الفلسفات الموروثة عن العوالم القديمة ظهرت ديانات أهل الكتاب من يهود ونصارى ، وهذه بدورها قد تركت أثراً كبيراً وبعيد المدى على الفكر الإسلامي المبكر خاصةً في ميدان تفسير القرآن الكريم حيث وجدنا أثر الإسرائيليات والنصرانيات واضحاً على تفسير القرآن خاصةً التفسير المأثور عن بعض الصحابة والتابعين الذين أخذوا عن أهل الكتاب وتأثروا بهم.^(٣٢)

إن فهم التحولات الفكرية التي مرّ بها الإمام الغزالي يقتضي فهم تلك الظروف التي نشأت فيها منظومة الأفكار العقلية التي تؤخّر النصوص النقلية عن مرتبة العقل ، وترى ذلك التناقض الظاهر ، وتحاول بذل الجهد لإزالة ذلك التناقض. لقد كان ظهور المعتزلة مرحلة فكرية مبكرة متميزة بأطروحاتها الفكرية التي قامت على جدل كلامي مرتّب ، ولم تقم على فلسفة عقلية بحثة ؛ فلم تكن الفلسفة قد وجدت طريقها بعد إلى الساحة المسلمة. لقد ظهر المعتزلة في فترة مبكرة ، وبطريقة غامضة بعض الشيء ، ولكنهم سرعان ما تركوا أثراً بعيد المدى على الساحة الفكرية الإسلامية.^(٣٣) وبلغ تأثير الفلسفات الوافدة على المجتمع الإسلامي قوّته عندما ظهرت جماعة ” إخوان الصفا “ ، والتي نشرت أفكارها من خلال الرسائل التي دوّنتها بشرت بها بين الناس. ولا ننسى الدور الكبير الذي قامت به حركة الترجمة منذ عهد مبكر ، ولقد وصلت الترجمة قمة ازدهارها على عهد المأمون العباسي الذي طوّر دار الحكمة. ولا يبعد عن الذهن دار الحكمة الفاطمية التي أقامها الفاطميون في القاهرة ، وهم الذين أقاموا دعوتهم على أساس الفكر الشيعي الباطني ، وقد مثّلوا خطراً كبيراً على الفكر الإسلامي السني الذي مثّله العباسيون.^(٣٤)

(٣٢) انظر دكتور علي حسني الخربوطلي ، الحضارة العربية الإسلامية ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٩٤ ، ص ٢٥٣ وما بعدها.

(٣٣) انظر عبدالرحمن بن محمد بن خلدون ، مقدّمة ابن خلدون ، بدون مكان طبع ، وبدون تاريخ ، ص ٤٨٧.

(٣٤) انظر الدكتور صبحي الصّالح ، التّظيم الإسلاميّ نشأتها وتطوّرها ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٨٢ ، ص ١٣٤ وما بعدها.

(٣٥) انظر عبدالحلي بن أحمد بن محمد العكبري الحنبلي ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، تحقيق عبدالقادر الأرناؤوط ، ومحمود الأرناؤوط ، دار ابن كثير ، دمشق ، ١٤٠٦هـ ، ج ٢ ، ص ١٤١.

ومن جانب آخر فإن تيار المتصوفة قد وجد مكانة مرموقة بين المسلمين منذ فترة مبكرة. وهناك جدل محتدم بين الدارسين حول أصول التصوف ، والواضح أن منابعه تعددت من هندية وفارسية وإفريقية. ولقد تعددت مدارس التصوف ؛ فمنه التصوف العملي التعبدي الزهدي الذي كان معروفاً بين الزهاد والعباد من الصحابة والتابعين دون أن يكون اسم التصوف معروفاً بينهم ، ومنه التصوف الفلسفي النظري الذي يحتوي على كثير من الأفكار التي ربما تعود لأصول فكرية بعيدة عن الإسلام. ولقد انقسم المتصوفة إلى أهل الصحو ، وأهل المحو ؛ فأهل الصحو هم الذين يتماشى حالهم مع ظاهر الشرع ، ولا تصدر عنهم أقوال ولا أحوال تناقض الشرع. وأما أهل المحو فهم أهل السكر والانسياق الذين تختلف حولهم الآراء وذلك لأنهم يأتون من الأفعال والأقوال ما يتناقض مع ظاهر الشرع.^(١) إن التيارات الفكرية التي عايشها المجتمع الإسلامي خلال القرون الخمسة الأخيرة الأولى يبدو أنها متداخلة ومتشابكة فيما بينها ، فلا يستبعد أن يكون المرء متكلماً وفيلسوفاً وصوفياً وشيعياً إسماعيلياً باطنياً في آن واحد. ويبدو أن هذا التداخل بين تلك المنظومات الفكرية هو الذي جعل الغزالي يتجول بحرّية وبدون حرج بينها ، ويحكي قصة ذلك التجول في كتابه "المنقذ من الضلال". لقد ظهرت هذه التيارات في الرحلة الفكرية والتقلبات العقلية التي مرّ بها أبو حامد الغزالي ، وهي الرحلة التي حكاها بصورة موجزة في الكتاب المذكور ، وأحال القارئ في مواضع كثيرة منها إلى كتبه الأخرى المفصلة التي سبقت كتابه "المنقذ". ويثور هنا سؤال وهو هل هذه المنظومات الفكرية والعقائدية التي ذكرها الغزالي في "المنقذ" كانت هي المنظومات الوحيدة بين المسلمين آنذاك؟ وإذا لم تكن الوحيدة فلماذا أضرب الغزالي عن ذكر غيرها من المنظومات؟ فمثلاً لماذا سكت عن فرق الشيعة الأخرى؟ ولعل الجواب يكمن في أن الغزالي حاول الاختصار الشديد في المنقذ ، كما أنه اكتفى بالمنظومات الفكرية العامة ؛ فالشيعة مثلاً على اختلاف أنواعهم يقولون بضرورة اتباع إمام معصوم من آل البيت ، وعليه ففكرتهم واحدة مهما اختلفوا حول اسم الإمام المتبوع. والمتكلمون على اختلاف طرائقهم المذهبية يلتقون في منهج واحد يقوم على مزج ما هو عقلي بما هو نقلي ، وعلى محاولة الدفاع عن العقائد الدينية بحجج وأدلة عقلية.^(٢)

(١) أبوبكر محمد الكلاباذي ، التعرف لمذاهب أهل التصوف ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٠هـ ، ص ٣.

(٢) انظر ابن خلدون ، المقدمة ، مصدر سابق ، ص ٥٠٧-٥١٧.

إنّ التّقلّبات العديدة التي طرأت على الغزالي تبدو غريبة بعض الشيء ، ولعلها تعبّر عن شخصية قلقة لا تستقرّ على حال ، ولا تقبل الأمور إلّا بعد بحثٍ وتمحيصٍ. يقول الدكتور جميل صليبا في مقدّمة تحقيقه لكتاب ” المنقذ من الضلال “ لأبي حامد الغزالي : ” إنّ حياة الغزالي مفعمةً بالغرائب ، قد تخلّلها كثير من العواصف والانقلابات ، وهي ترشدنا إلى تفهّم نفسيّة هذا المصلح الكبير ، والمفكر السّامي ، والعبقري العظيم ، وتصورُ لنا تطوّره الفكري أحسنَ تصوير “^(٨).

التّحوّلات الفكرية في حياته :

تقول التراجم إنّ أباحامد الغزالي وُلِدَ في ” طوس “ في إقليم خراسان ، وكان والده يعمل في غزل الصّوف ، ولكنّ لقبه لم يأت من هذه المهنة ؛ فهو ” الغزالي “ وليس ” الغزالي “ ، ولعلّ والده كان من المتصوّفة. ولقد أوصى الوالد قبيل وفاته بتربية ولديه إلى أحد أصدقائه ، وكان ذلك الصديق من المتصوّفة هو الآخر ، وهذا يعني أنّ الغزالي نشأ في بيئة صوفيّة الأمر الذي ترك أثراً كبيراً على نفسه ، وعلى نظراته للأمور. اتّصل الغزالي بالمدرسة ليتعلّم تعليماً إسلامياً تقليدياً يقوم على دراسة القرآن والفقه ؛ فقد ذكرت المصادر أنّ أباحامد قرأ في صباه طرفاً من الفقه ببلده ” طوس “ على الإمام أحمد الراذكاني ، ثمّ سافر إلى ” جرجان “ ليأخذ عن الإمام أبي نصر الإسماعيلي ، فسمع منه ، وكتب عنه ، ” وعلّق عنه التعليقة “ ثمّ رجع إلى طوس.^(٩)

إنّ المرحلة التّعليميّة المبكّرة للإمام الغزالي تجعلنا نعتقد أنّه أخذ في دراسة القرآن والفقه على مذهب الشّافعي ، وبجانب ذلك لا بدّ أنّه وقف على دراسة العقيدة الأشعرية بصورة مبسّطة خلال تلك المرحلة ، ومعلوم لدينا الارتباط بين الشّافعيّة والأشاعرة في مقابل الارتباط بين الأحناف والماتريديّة. ومن هنا نستطيع القول إنّ المرحلة المبكّرة من حياة الغزالي شهدت اطلّاعه على علوم القرآن والفقه ، وعلى معاشة التّصوّف ، وعلى الوقوف على مبادئ علم الكلام على العقيدة الأشعرية. إنّ الوقوف على هذه الخلفيّة الثقافيّة والفكريّة للغزالي

(٨) انظر مقدمة المحقق من كتاب أبي حامد الغزالي ، المنقذ من الضلال والوصل إلى ذي العزة والجلال ، حقّقه وقدم له الدكتور جميل صليبا والدكتور كامل عياد ، الطبعة السابعة ، دار الأندلس للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، ١٩٦٧ ، ص ٨.

(٩) السبكي ، طبقات الشافعية الكبرى ، مصدر سابق ، ج ٦ ، ص ١٩٥.

ضرورية للغاية لفهم تحولاته الفكرية فيما بعد. وتحذُّنا المصادر أنَّ الغزالي ” قدم ” نيسابور“
ولازم إمام الحرمين أبا المعالي الجويني ، وجدَّ واجتهد ، حتى برع في المذهب الشافعي ،
والخلاف ، والجدل ، والأصلين أصول الدين وأصول الفقه ، والمنطق ، وقرأ الحكمة
والفلسفة ، وأحكم كلَّ ذلك ، وفهم كلام أرباب هذه العلوم ، وتصدَّى للردِّ عليهم وإبطال
دعوايهم“^(١١).

وبعد وفاة الجويني خرج إلى ” نظام الملك “ للتدريس في مدرسته النظامية
في ” المعسكر “. وتعتبر هذه المرحلة مرحلة بالغة الأهمية في حياة الغزالي الفكرية ، بل ربَّما
ساعدتنا كثيراً في فهم جوانب عديدة من تقلباته الفكرية. ولكننا قبل متابعتنا في رحلته
الفكرية نقف معه في ” المنقذ “ لشرح لنا جوانب شخصيته القلقة المتعطشة للمعرفة إذ
يقول : ” ولم أزل في عنفوان شبابي - منذ راهقت البلوغ ، قبل بلوغ العشرين ، إلى الآن ، وقد
أناف السنُّ على الخمسين - أقتحم لجة هذا البحر العميق ، وأخوض غمرته خوض الجسور ،
لا خوض الجبان الحذور ، أتوغَّل في كل مظلمة ، وأتهجم على كل مشكلة ، وأتقحم كل
ورطة ، وأتفحص عن عقيدة كل فرقة ، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة ؛ لأميز بين محقٍّ
ومبطل ، ومتسنن ومبتدع. لا أعادر باطنياً إلاَّ وأحبُّ أن أطلع على بطانته ، ولا ظاهرياً إلاَّ
وأريد أن أعلم حاصل ظهارته ، ولا فلسفياً إلاَّ وأقصد الوقوف على كنه فلسفته ، ولا متكلماً
إلاَّ وأجتهد في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته ، ولا صوفياً إلاَّ وأحرص على العثور على سرِّ
صفوته ، ولا متعبداً إلاَّ وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته ، ولا زنديقاً معطلاً إلاَّ وأتحسُّ
وراءه للتنبيه لأسباب جرأته في تعطيله وزندقته“^(١٢).

ويقول عن نفسه في المنقذ من الضلال : ” وقد كان التَّعَطُّش إلى درك حقائق الأمور
دأبي وديدني من أول أمري وريعان عمري“^(١٣). ويمضي واصفاً نفسه قائلاً : ” إنَّما مطلوبِي
العلم بحقائق الأمور“^(١٤). ويقول : ” فلا بد من طلب حقيقة العلم ما هي ؟ فظهر لي أنَّ العلم
اليقيني هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب ، ولا يقارنه إمكان الغلط

^(١١) صالح أحمد الشامي ، الإمام الغزالي حجة الإسلام ومجدد المائة الخامسة ، الطبعة الأولى ، دار
القلم ، دمشق ، ١٩٩٣ ، ص ص ٢٠ - ٢١.

^(١٢) الغزالي ، المنقذ من الضلال ، مصدر سابق ، ص ص ٦٢ - ٦٣.

^(١٣) نفسه ، ص ٦٣.

^(١٤) نفسه ، ص ٦٤.

والوهم“^(١١) إن هذا المطلب الذي يطلبه الغزالي في هذا النص مطلب عسير الحصول بالنسبة للإنسان المحدود في إدراكه ، وفي عقله ، وفي حواسه. والعلم اليقيني بحقائق الأمور ، والذي لا يخالطه شك ولا ريب يحتاج إلى منهجية صارمة ، وإلى مسالك وعرة ، وإلى بحث وتفتيش على أعلى درجات الدقة. ومن هنا كانت صعوبة الرحلة الفكرية المعرفية التي تجسم وعورتها الإمام الغزالي ، وهي الرحلة التي لخصها لنا في كتابه المتفرد ” المنقذ من الضلال ، والموصل إلى ذي العزة والجلال“.

ويقول أيضاً : ” ثم علمت أن كل ما لا أعلمه على هذا الوجه ، ولا أتقنه هذا النوع من اليقين ، فهو علم لا ثقة به ولا أمان معه ، وكل علم لا أمان معه فليس بعلم يقيني“^(١٢) ومن خلال هذا النص نقف أمام الحالة التي عانى منها الإمام الغزالي في تلك اللحظة. إننا أمام حالة من الشك في كل العلوم والمعارف والمدرجات التي اجتمعت في وعيه. وهي الحالة التي وصفها هو بأنها حالة من الشك المطلق ، ومن السفسطة. ولكن الأمر في تلك اللحظات كان بينه وبين نفسه ؛ فهي سفسطة بحكم الحال ، لا بحكم المقال. ومن هنا نفهم عمق تلك الأزمة الفكرية المعرفية التي عاناها وحده دون أن يصريح بها لأحد من الناس.

ثم يجبرنا الغزالي أنه فتش عن علومه - كما قال - فوجد نفسه عاطلاً عن علم موصوف بهذه الصفة إلا في الحسيات والضروريات. ثم عاد وتساءل عن علمه بهذه الحسيات والضروريات أهو علم آمن محقق؟ أم هو كسائر أمانه بعلوم التقليديات والنظريات؟! ثم اختبر الغزالي علمه بالمحسوسات فوجده علماً لا يوثق به ، وذلك لأن حاكم العقل حكم ببطان بعض مظاهره ، وحكم حاكم الحس والتجربة والمشاهدة ببطان البعض الآخر منه. ومن هنا أبطل الغزالي العلم بالحسيات بواسطة العقلية. غير أنه عاد وتساءل قائلاً : ” بم تأمن أن تكون ثقتك بالعقلية كثقتك بالمحسوسات؟ لقد جاء حاكم العقل فكذب المحسوسات فلعل هناك حاكماً يأتي ويكذب حاكم العقل“^(١٣) وفي هذا النص تبدأ الأزمة الفكرية التي عانى منها الغزالي طويلاً ؛ لقد بدأ شكّه في المعارف العقلية ، وسنجد أنه في نهاية الأمر توصل إلى أن العقل لا يمكن له أن يصل إلى معارف يقينية في الأمور الغيبية ،

(١١) الغزالي ، المنقذ من الضلال ، مصدر سابق ، ص ٦٤.

(١٢) نفسه ، ص ٦٤.

(١٣) الغزالي ، المنقذ ، مصدر سابق ، ص ٦٧.

ولجأ إلى المصادر الشرعية المعروفة ، وجعل منها مرجعية فكرية معرفية يصدر عنها في منهجيته الفكرية المعرفية.

إن هذه الكلمات التي احتوتها هذه النصوص التي حرصت على إيرادها بكاملها تصف لنا شخصية الغزالي التي لا تقنع بالمظاهر والقشور ، ولا تمر على الظواهر والمسائل الفكرية مرور الكرام. إنها شخصية باحثة منقبة عن الحقائق ، والغزالي ينظر - بحكم بيئته الثقافية ، وخلفيته الفكرية - إلى أن تضافر العقل والنقل يؤدي إلى كشف أسرار المعرفة ، وهو لا يرى تناقضاً بين العلم المنقول ، والعلم المعقول ؛ فهذا هو يقول : ” ظنُّ من يظنُّ أنَّ العلوم العقلية مناقضة للعلوم الشرعية ، وأنَّ الجمعَ بينهما غير ممكن ، ظنُّ صادر عن عمى في عين البصيرة ، نعوذُ بالله منه “^(١٧). إن الغزالي - دون ريب - نتاج طبيعيٍّ لعدد من البيئات الثقافية والفكرية التي عايشها المجتمع الإسلامي في فترة حياته ، ويذهب الأستاذ الدكتور حسن الفاتح قريب الله إلى أنَّ ثقافة الغزالي فرع من ثقافات متعددة فيها مجموعة العناصر التالية :

- (١) العنصر الإسلامي الذي يتمثل في القرآن والحديث وآراء الصحابة والفقهاء.
 - (٢) العنصر اليوناني المتمثل في الثورة الفلسفية التي هزت الفكر الإسلامي هزاً عنيفاً كانت ضحاياه من المسلمين أكثر من ضحاياه من غيرهم.
 - (٣) العنصر الهندي ، وقد أحدث دويّاً وسط الأفكار الصوفية جعل ضعفاءهم يتصورون ما انتهوا إليه من قربٍ لله فناءً روحياً فيه طائفة الحلول ، وطائفة الاتحاد ، وطائفة الوصول.
 - (٤) العنصر الفارسي الذي لعب دوره لا في العقائد الشيعية المتطرفة فحسب بل العقائد السنية حيث اضطرَّ الغزالي وغيره أن يدخلوا البحث في الإمامة ضمن عقائد التوحيد مع أنَّها مسألة سياسية بحتة.
 - (٥) العنصر الشخصي الذي هضم كل الثقافات وتمثلها في آراء جديدة فيها الأصالة والطرافة كما فيها المجاراة والترديد لآراء الأقدمين.^(١٨)
- وحول رسم الصورة الفكرية والثقافية للإمام الغزالي يقول سليمان دنيا في كتابه ” الحقيقة في نظر الغزالي “ : ” ثم إنَّ الغزالي نهل من كل ثقافة ، وروي من كل مشروع.

(١٧) الغزالي ، إحياء علوم الدين ، مصدر سابق ، ج ٣ ، ص ١٧ .

(١٨) الأستاذ الدكتور حسن الفاتح قريب الله ، دور الغزالي في الفكر ، ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ ، مطبعة الأمانة ، ٢ شارع جريرة بدران ، شبرا ، مصر ، ص ص ٢٦-٢٧ .

والغزالي حرٌّ في تفكيره ، لا يرى في الكثرة دليلاً على صوابها ، ولا في القلة أمانةً على خطئها ، يعرف الرجال بالحق ، ولا يعرف الحق بالرجال. وقد ساعده عدم تعصُّبه على أن يأخذ الحقَّ أتى وجده ولو من فم كافر“^(١٩).

ويمضي سليمان دنيا واصفاً الغزالي بقوله : ” ولهذا ظهر الغزالي وفيه شبهٌ بكل أولئك الذين قرأ لهم وأخذ عنهم... وهذا ما جعل الناس يتنازعونه ؛ فالمتصوفة يرونه صوفياً ، والأشاعرة يرونه أشعرياً ، والفلاسفة يرونه فيلسوفاً“^(٢٠).

ونرجع إلى ” نيسابور “ حيث اجتمع الغزالي بالجويني ، وأخذ عنه علم الكلام ، ولعل هذه الفترة من حياة الغزالي هي التي شهدت حالة الشك التي مرَّ بها ، ولا يستبعد بعض الدارسين أن تكون حالة الشك هذه هي التي أحدثت بينه وبين أستاذه الجويني نوعاً من الجفوة ، وهم يحاولون بذلك تفسير مشاعر الجويني نحو الغزالي التي وصفها البعض بأنها مشاعر حسد برغم إعجاب الجويني به. ولكن هذا التفسير لا يقوم أمام الحقائق التي ذكرها الغزالي نفسه ؛ فهو كان على حالة من الشكّ والسفسطة بحكم الحال لا بحكم المنطق والمقال ؛ فهو لم يصرِّح بهذا الشك الذي عانى منه. وأما الجفوة بين الأستاذ والتلميذ النبیه فليست من الأمور المستغربة. والروايات تتحدث عن أن الجويني عندما رأى مؤلفات تلميذه صرَّح له بأنه جذب الأنظار بعيداً عنه في حياته ، وكان ينبغي أن ينتظره حتى وفاته ؛ فتقول الروايات إنَّ الجويني قال له : ” لقد دفتنتي وأنا حي ... لقد غطى كتابك على كتابي“^(٢١) وبرغم الجفوة التي تتحدث عنها المصادر إلّا إنَّ الغزالي ظل ملازماً لأستاذه الجويني حتى وفاته. إنَّ هذه المرحلة من حياة الغزالي قد أسهمت إلى حد كبير في تشكيل ملامح شخصيته ؛ فمن الجويني أخذ الغزالي شخصيته الأصولية والكلامية والفقهية التي اعتمد عليها في مستقبل حياته.

وبعد ذلك تتحدث المصادر عن توجّه الغزالي إلى ” المعسكر “ حيث التقى بالوزير ” نظام الملك “ السلجوقي ، ودّرس في مدرسته النظامية لمدة خمس سنوات.

(١٩) سليمان دنيا ، الحقيقة في نظر الغزالي ، سلسلة مكتبة الدراسات الفلسفية ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف ، مصر ، ص ٩.

(٢٠) نفسه ، ص ٩.

(٢١) انظر شمس الدين الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥ ، ج ١٩ ، ص ٣٣٥.

كان الغزالي يبحث عن الحقيقة وعن ضرورة إدراكها إدراكاً تؤيّدُهُ الضرورة العقلية ، وهو لا يثق إلاّ بها وذلك عندما تكون من نوع العلم اليقيني .

لقد ولّدت التساؤلات التي مرّت على ذهن الغزالي حالة من الشك استمرت لمدة شهرين ، وكان خلال هذين الشهرين على مذهب السفسطة بحكم الحال ، لا بحكم النطق والمقال ” حتى شفى الله تعالى من ذلك المرض ، وعادت النفس إلى الصحة والاعتدال ، ورجعت الضروريات العقلية مقبولةً موثوقاً بها على أمن و يقين ، ولم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام ، بل بنور قذفه الله تعالى في الصدر ، وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف ؛ فمن ظنّ أنّ الكشف موقوف على الأدلة المحرّرة فقد ضيّق رحمة الله الواسعة “^(٢٢)

إنّ الحقيقة المؤيّدّة من الضرورة العقلية والتي ترتقي إلى مرتبة العلم اليقيني ، والتي هي مطلوب أبي حامد الغزالي لم يجدها عند علماء الكلام ؛ فهو أعلن أنّ شفاءه من مرض الشك والسفسطة لم يكن بنظم دليل ، وهنا نستبعد الفلسفة ، ونستبعد علم الكلام . ويعلن أيضاً أنّ الضروريات العقلية رجعت مقبولةً عنده عن طريق النور الذي قذفه الله تعالى في الصدر . وهنا نتساءل هل حسم الغزالي رحلته الفكرية من أول وهلة؟! أم أنّه حسم جزءاً منها وهو ما يتصل بالأمور العقلية التي تولّف عالم الشهادة ، وبقي عالم الغيب ، وما وراء الحس والطبيعة؟!

يقول أبو حامد الغزالي : ” ولما شفاني الله تعالى من هذا المرض بفضلِهِ وسعة جوده ، انحصرت أصناف الطالبين عندي في أربع فرق :

- المتكلمون : وهم يدّعون أنهم أهل الرأي والنظر .
 - الباطنية : وهم يزعمون أنهم أصحاب التعليم والمخصوصون بالاقتباس من الإمام المعصوم .
 - الفلاسفة : وهم يزعمون أنهم أهل المنطق والبرهان .
 - الصوفية : وهم يدّعون أنهم خواص الحضرة وأهل المشاهدة والمكاشفة^(٢٣) .
- وبعد أن حصر الغزالي الفرق التي عزم على البحث فيها يقول : ” فقلت في نفسي : الحق لا يعدو هذه الأصناف الأربعة ؛ فهؤلاء هم السالكون سبل طلب الحق ، فإن شذّ الحق

(٢٢) الغزالي ، المتقذ من الضلال ، مصدر سابق ، ص ص ٦٧ - ٦٨ .

(٢٣) الغزالي ، المتقذ من الضلال ، مصدر سابق ، ص ٦٩ .

عنهم ، فلا يبقى في درك الحق مطمع ، إذ لا مطمع في التقليد بعد مفارقتة ^(٢٤) . ولكن قد يشور سؤال منطقي وهو لماذا حصر الغزالي طالبي الحق في هذه المجموعات الأربع ؟ أليس بالإمكان أن يكون هناك باحثون آخرون عن الحق ؟!

وبعد أن حصر الغزالي طلبة الحقيقة في أربعة أصناف بدأ رحلة البحث عن حقيقة كل صنف منهم فقال : ” فابتدرت لسلوك هذه الطرق ، واستقصاء ما عند هذه الفرق مبتدئاً بعلم الكلام ، ومثنيّاً بطريق الفلسفة ، ومثلثاً بتعليم الباطنية ، ومربعاً بطريق الصوفية ” ^(٢٥) . لقد تبين لنا من خلال وقوفنا مع الغزالي في فترة الشك التي مرّ بها أنه خرج من ذلك الشك عن طريق ” نورٍ قذفه الله تعالى في قلبه ” ، ومعنى ذلك أن الغزالي قد حسم أمره منذ تلك اللحظة ، وحدّد المجال المعرفي والفكري الذي يتحرّك فيه . لقد حدد ذلك النور الذي قُذِفَ في قلب الغزالي ” العقل ” عنده ، ومكّنه من إدراك حقائق الأشياء ، وبعبارة أخرى فالغزالي عرف العقل ، وعرف حقائق الأشياء الحسية والعقلية بذلك النور . وذلك ” النور ” بالطبع هو إلهام وفيض وتجليات من الله تعالى على قلبه . ويبدو أن الغزالي بهذا المسلك الذي سلكه في تحديد ” العقل ” و ” المعرفة ” لم يكن يتحرّك ضمن إطار صوفي ، وإنما كان يتحرّك ويبحث عن مشروع علمي معرفي كبير يتجاوز أطر ” البرهان ” و ” العرفان ” و ” البيان ” و ” الكلام المرتّب المجرّد ” . إنّ المنظومات الأربع التي بحث فيها الغزالي ما كان ينبغي لها أن تروي ظمأه ، ولا أن تشبع نهمه ، وذلك لأنها تعتبر محدودة ، ولعلنا نلاحظ أن الغزالي برغم مدحه لمذهب التصوف إلا أنه كان يمدح في الأساس ” النبوة ” لأنه كان يؤكّد على أن المتصوفة هم ورثة النبوة . ولقد بيّن الغزالي ذلك بوضوح في نهاية رحلته الفكرية في ” المنقذ ” حيث قال : ” ومما بان لي بالضرورة من ممارسة طريقتهم حقيقة النبوة وخاصيتها ” ^(٢٦) . وفصّل الغزالي في حقيقة النبوة ، وفي اضطراب الخلق إليها حيث بيّن أن الإنسان بحاجة ماسة إليها لمعرفة الأمور التي تخرج عن نطاق الحس ، ونطاق العقل . وذكر أن ” جوهر الإنسان في أصل الفطرة خلُق خالياً ساذجاً لا خبر معه من عوالم الله ” ^(٢٧) . وشرع الغزالي في ذكر الحواس الأولى

(٢٤) الغزالي ، المنقذ من الضلال ، مصدر سابق ، ص ٦٩ .

(٢٥) نفسه ، ص ٧٠ .

(٢٦) الغزالي ، المنقذ من الضلال ، مصدر سابق ، ص ١٠٩ .

(٢٧) نفسه ، ص ١١٠ .

التي يخلقها الله تعالى في الإنسان بدايةً من اللمس ثم البصر ثم السمع ثم الذوق ثم العقل ، وبالعقل يدرك الواجبات والجائزات والمستحيلات.^(٢٨)

ولكن قول الغزالي : ” وبالعقل يدرك الواجبات والجائزات والمستحيلات “^(٢٩) ألا يثير أسئلة كثيرة؟ فهل جميع الواجبات والجائزات والمستحيلات في حق الله تعالى ، وفي حق الأنبياء والرسل ، وفي حق الملائكة تعرف بالعقل؟ أوليس للشرع مجال لتحديد ذلك؟ أو لتحديد الكثير منه؟ أو بعضه على الأقل؟! وهل نحن هنا أمام الغزالي الذي يعلي من مكانة العقل؟ بينما نجده في مكان آخر من ” المنقذ من الضلال “ يحدّد العقل بالنور الذي قذفه الله في قلبه ؛ فهل نحن أمام تناقض معرفي ومنهجي؟! ولكن الغزالي يؤكد على أنّ ما وراء ذلك من أمور الغيب فإنّ العقل لا يقدر على معرفتها ، ولا على إدراك كنهها ، وهنا يأتي دور النبوة. ويرى بعض الدارسين أنه لا وجه في الاعتراض على الغزالي في قوله : ” وبالعقل يدرك الواجبات والجائزات والمستحيلات “ بحسبان أن هذه المقولة تختلف عن القول إن الأمور الغيبية تعرف بالعقل. ومن هنا فموقف الغزالي من هذه الناحية يمكن قبوله وفهمه.

يصرّح الغزالي في ” المنقذ من الضلال “ أنه بدأ رحلة النظر الفكري بعد أن خرج من دائرة الشك والفسفسطة ، وبعد أن شفاه الله تعالى من ذلك الداء بذلك النور المقذوف في القلب ، والنور يتنافى مع الضلال من دون شك ؛ وعليه فالغزالي خرج من الضلال وأنقذه الله تعالى منه في أول القصة التي حكاها في كتابه. ومن هنا نتساءل هل تحرّك الغزالي بين تلك الجماعات الفكرية باحثاً عن الهداية عندها أم أنه كان يسعى للبرهنة على فسادها؟ وفي غالب الظن لأنه كان يسعى للبرهنة على فسادها ، وسوف نلاحظ ذلك عند مرافقتنا له في رحلته.

موقف الغزالي من علم الكلام :

بدأ الغزالي رحلته الفكرية بالوقوف على علم الكلام ، وهو علم جامع بين النقل والعقل ، وغاية ما فيه أنه يحاجج ويجادل خصوم العقائد الدينية بكلام مرتب ، كما قال الغزالي، ولعل هذا الكلام المرتب لم يكن ليشفي غليله ، ولا يروي ظمأ المعرفي ؛ فهذا هو يحدثنا في ” المنقذ “ قائلاً : ” ثم إني ابتدأت بعلم الكلام فحصلته وعقلته ، وطالعت كتب المحققين منهم ، وصنفت فيه ما أردت أن أصنّف ، فصادفته علماً وافياً بمقصوده ، غير وافٍ

(٢٨) الغزالي ، المنقذ من الضلال ، مرجع سابق ، ص ١١٠ - ١١١ .

(٢٩) نفسه ، ص ١١١ .

بمقصودي ؛ إنما المقصود منه حفظ عقيدة أهل السنة ، وحراستها من تشويش البدعة “^(٣٠). ويمضي الغزالي إلى القول : ” فأنشأ الله تعالى طائفة المتكلمين ، وحرك دواعيهم لنصرة السنة بكلام مرتب ، يكشف عن تلبيسات أهل البدع المحدثه ، على خلاف السنة الماثورة ؛ فمنه نشأ علم الكلام وأهله “^(٣١). ويعيب الغزالي على أهل الكلام أنهم اعتمدوا في عملهم هذا على ” مقدمات تسلموها من خصومهم ، واضطروهم إلى تسليمها : إما التقليد ، أو إجماع الأئمة ، أو مجرد القبول من القرآن والأخبار. وكان أكثر خوضهم في استخراج مناقضات الخصوم ، ومؤاخذتهم بلوازم مسلماتهم ، وهذا قليل النفع في حق من لا يسلم سوى الضروريات شيئاً ؛ فلم يكن الكلام في حقي كافياً ، ولا لدائي الذي كنت أشكوه شافياً “^(٣٢). نعم إن الغزالي يخبرنا بأن علم الكلام مرّ بعدة مراحل ، وأن مرحلته الأولى كانت مرحلة ” الكلام المرتب “ وهي المرحلة التي لم يجد فيها الغزالي فائدة تذكر من هذا العلم. ثم ذكر المرحلة التالية التي دخل فيها علم الكلام ، وهي مرحلة ” الصنعة “ ، وهي مرحلة ليست بذات فائدة له ، ولكنها ربما تكون مفيدة لغيره من الناس - على حد تعبيره - حيث ذكر أن أمراض الناس وعللهم تختلف ، ومن ثم فربما يصلح علاج بعينه لشخص ، ولا يصلح ذات العلاج لشخص آخر. ولعل الغزالي يقصد بمرحلة ” الصنعة “ التي مرّ بها علم الكلام تلك المرحلة التي بدأ فيها علم الكلام يظهر وكأنه يدخل في مباحث الفلسفة بفعل المؤثرات التي ظهرت في المجتمع المسلم بفعل الترجمة عن تراث اليونان الذي بهر المفكرين المسلمين في تلك الآونة. ولكن الأمر المهم بالنسبة لبحثنا هو أن الغزالي يصرّح بأن علم الكلام لم يشف داءه الذي عانى منه !! في حين أنه أخبرنا في بدء الكتاب أن النور الذي قذفه الله تعالى في قلبه شفاه من دائه !! فهل هناك أدواء متعددة كان يعاني منها الغزالي ؟!

إن المتتبع للرحلة الفكرية للغزالي في كتابه ” المنقذ من الضلال “ لا يجد صورة الحارطة الفكرية للإمام الغزالي واضحة أمامه ، بل فيها الكثير من الغموض والإبهام. ووجه الغموض الذي بدا لي أن الغزالي خرج من شكّه الأول الذي ذكره لنا في أول المنقذ بنور قذفه الله تعالى في قلبه ، وبه خرج من نطاق الشك المطلق الذي عانى منه ، وهو شك مرضي أقرب إلى رفض المسلمات اليقينية البديهية. وبهذا النور أصبح ممتلكاً للمسلمات البديهية التي مكنته من البحث

^(٣٠) الغزالي ، المنقذ من الضلال ، مصدر سابق ، ص ٧١.

^(٣١) الغزالي ، المنقذ من الضلال ، مصدر سابق ، ص ص ٧١-٧٢.

^(٣٢) نفسه ، ص ٧٢.

في المنظومات الفكرية التي ناقشها في كتابه المنقذ. ومن هنا يزول الغموض والإبهام بين المسألتين؛ فالنور الذي وجده في أول الكتاب لا يغني عن البحث الذي قام به، وحكاها لنا في كتابه.

موقف الغزالي من الفلسفة :

وعندما وجد الغزالي أن علم الكلام لم ينجح في إخراجهم من حالته لجأ إلى البحث في علم الفلسفة، ولكن يظهر لنا أنه دخل إلى عالم الفلسفة وهو يحمل في ذهنه رأياً مسبقاً نحوها، وأنه يرى فسادها، وأنه يسعى لتبيين ذلك الفساد. ويظهر ذلك واضحاً من خلال قوله: ”ثم إنني ابتدأت، بعد الفراغ من علم الكلام، بعلم الفلسفة، وعلمت يقيناً أنه لا يقف على فساد نوع من العلوم، من لا يقف على منتهى ذلك العلم حتى يساري أعلامهم في أصل ذلك، ثم يزيد عليه ويجاوز درجته؛ فيطلع على ما لم يطلع عليه صاحب العلم من غور وغائلة. وإذا كان يمكن أن يكون ما يدعيه من فساد حقاً. ولم أر أحداً من علماء الإسلام صرف عنايته وهمته إلى ذلك“^(٣٣) وبعد أن درس الغزالي علوم الفلاسفة، ومسالكتهم، وأصنافهم وصممهم جميعاً بالكفر والإلحاد على تفاوت مسالكهم من البعد أو القرب من الحق. يتحدث الغزالي عن الفلاسفة قائلاً: ”فاسمع الآن حكايتهم وحكاية حاصل علومهم، فإني رأيتهم أصنافاً، ورأيت علومهم أقساماً، وهم على كثرة أصنافهم يلزمهم وصمة الكفر والإلحاد، وإن كان بين القدماء منهم والأقدمين، وبين الأواخر منهم والأوائل، تفاوت عظيم في البعد عن الحق والقرب منه“^(٣٤).

لقد فصل الغزالي مباحث الفلسفة في كتابه ”المنقذ من الضلال“ وحصرها في ستة أقسام وهي: المباحث الرياضية، والمنطقية، والإلهية، والطبيعية، والسياسية، والأخلاقية.^(٣٥) وبين الغزالي أن أكثر أغاليط الفلاسفة في مباحث الإلهيات حيث قال: ”وأما الإلهيات ففيها أكثر أغاليطهم، فما قدروا على الوفاء بالبرهان على ما شرطوه في المنطق، ولذلك كثر الاختلاف بينهم فيها، ولقد قرب ”أرسطاطاليس“ فيها من مذاهب

(٣٣) الغزالي، المنقذ من الضلال، مصدر سابق، ص ٧٤.

(٣٤) نفسه، ص ٧٥.

(٣٥) نفسه، ص ٧٩.

الإسلاميين ، على ما نقله ” الفارابي “ و ” ابن سينا “ ولكن مجموع ما غلطوا فيه يرجع إلى عشرين أصلاً ، يجب تكفيرهم في ثلاثة منها ، وتبديعهم في سبعة عشر ^(٣٦) .
وعندما فرغ الغزالي من دراسة الفلسفة وتحصيلها وفهمها علم أنّ علم الفلسفة ليس وافياً بكمال الغرض ، وأنّ العقل ليس مستقلاً بالإحاطة بجميع المطالب ، ولا كاشفاً للغطاء عن جميع المعضلات ^(٣٧) .

موقف الغزالي من التعليمية الباطنية :

وهم طائفة الإسماعيلية من الشيعة الذين يقولون بضرورة اتباع الإمام المعصوم - في رأيهم - ويطلقون على هذا الإمام اسم ” المعلم “ . ويبدو أنّ هذه الطائفة قد وصلت مرحلة كبيرة من النفوذ والقوة على أيام أبي حامد الغزالي ، وظهرت منهم فرق وطوائف عديدة أثارت الخوف والفرع بين الناس ؛ وذلك لأنّ بعض هذه الفرق لجأت إلى الاغتيالات التي أرهبت بها الناس . ومن أبرز تلك الفرق ” الحشاشون “ . لقد مثلت الطريقة العنيفة التي لجأت إليها بعض فرق الباطنية خطراً أمنياً على المجتمع ، كما أنّ قولهم بفكرة ” الإمام “ المعصوم مثلت خطراً سياسياً على مشروعية الخلفاء العباسيين . وقبل أن ندخل في مناقشة الغزالي للطائفة التعليمية الباطنية يستوقفنا أحد الباحثين المعاصرين وهو ” عارف تامر “ الذي كتب كتاباً بعنوان ” الغزالي بين الفلسفة والدين “ ، ويبدو أنّ الكاتب يحاول الربط بين الغزالي وبين الإسماعيلية في مراحل حياته الأولى في ” طوس “ و ” جرجان “ ؛ فهو يحاول الاستفادة من الغموض الذي يحيط بوالد الغزالي ، وبالصديق الذي تولّى تربية الغزالي وأخيه ، وبالشيخ أبي نصر الإسماعيلي الذي درس عليه الغزالي بمدينة ” جرجان “ ، نقول يحاول الاستفادة من هذا ” الغموض “ الذي لا نوافقه عليه ليجعل من جميع أولئك من ضمن الطائفة الإسماعيلية ^(٣٨) . بل إنّ هذا الباحث زعم أن الشيخ أبا النصر الإسماعيلي هو على الأرجح - كما يقول - ” إسماعيل بن مسعدة “ وهو ” من دعاة الإسماعيلية المشهورين “ !!! ومضى عارف تامر يقول : ” ومن

(٣٦) الغزالي ، المنقذ من الضلال ، ص ٨٣ .

(٣٧) المصدر السابق ، ص ٩١ .

(٣٨) انظر عارف تامر ، الغزالي بين الفلسفة والدين ، رياض الرئيس للكتب والنشر ، لندن ، ١٩٨٧ ، ص ٤١ .

الجدير بالذكر أنّ السبكي قد انفرد من بين المؤرخين القدماء في ذكر دراسة الغزالي على الإسماعيليين في جرجان ، في حين أغفل أكثر المؤرخين ذلك عن قصد أو عن غير قصد “^(٢٩) ، ويمضي مواصلاً قوله : ” ولكنّ السبكي عاد وذكر أنّ تعلية الغزالي من الداعي الإسماعيلي قد سرقها منه اللصوص عند عودته من جرجان إلى طوس “ . ويؤكد الباحث المذكور قوله هذا في هذا النص : ” وهناك – أي في جرجان – درس على أحد دعاة الإسماعيلية ، ثم حصل على التعليقة ، وهذه العتيّة لم يكن يحصل عليها إلا ” المستجيب “ الذي يكون قد وصل إلى المرتبة الابتدائية في الدعوة الإسماعيلية “^(٣٠) . وهنا نقول إنّ ما ذهب إليه الباحث عارف تامر في كتابه ” الغزالي بين الفلسفة والدين “ إنّما هو من قبيل الخيال والرجم بالغيب !!! بل إنّ ما ذكره يتناقض مع الأمانة العلمية ؛ فالسبكي لم يذكر دراسة الغزالي على الإسماعيليين في جرجان.^(٣١) ولم يترك السبكي مجالاً لنجته في من هو ” أبو نصر الإسماعيلي “ بل إنّ ترجمته له ترجمة وافية ؛ فليس هو بالشخصية الغامضة كما ذهب الباحث المذكور الذي ذهب إلى القول إنّ هذا الشيخ ” على الأرجح هو إسماعيل بن مسعدة “^(٣٢) .!!!

ويستطيع كل باحث عن حقيقة أبي نصر الإسماعيلي أن يرجع إلى ” طبقات الشافعية الكبرى “ للسبكي^(٣٣) ليتبين له أنّ أبا نصر الإسماعيلي هو محمد بن الإمام أبي بكر أحمد بن إبراهيم بن إسماعيل ؛ فهو ينسب إلى جده إسماعيل ، وليس إلى الفرقة الإسماعيلية !!! كما أنه كان من أجلة الفقهاء والعلماء على المذهب الشافعي ، وعلى العقيدة الأشعرية التي يتبعها غالب الفقهاء الشافعية . ومن هنا فلا علاقة البتّة لأبي حامد الغزالي ولا لأحد من أهله وأسرته بالطائفة الإسماعيلية الباطنية . وأما ” إسماعيل بن مسعدة الإسماعيلي “ الذي رجّحه عارف تامر أيضاً فقد ذكره صاحب كتاب ” الغزالي الفيلسوف “ ، وقال إنّ الغزالي ربما يكون قد درس على يده ، وليس على يد أبي نصر ، ولكنّ هذا الشيخ لا يكتنّى بأبي نصر ، وإنّما يكتنّى بأبي القاسم ، ووردت ترجمته في عدد من كتب التراجم ، ومن أهمها ” سير أعلام

(٢٩) انظر عارف تامر ، الغزالي بين الفلسفة والدين ، مصدر سابق ، ص ٤١ .

(٣٠) نفسه ، ص ٤٦ .

(٣١) ذكر السبكي أنه سافر إلى جرجان إلى الإمام أبي نصر الإسماعيلي وعلق عنه التعليقة ثم رجع إلى طوس . انظر السبكي ، طبقات الشافعية الكبرى ، مصدر سابق ، ج ٦ ، ص ١٩٥ .

(٣٢) عارف تامر ، الغزالي بين الفلسفة والدين ، مصدر سابق ، ص ٤١ .

(٣٣) السبكي ، طبقات الشافعية الكبرى ، مصدر سابق ، ج ٤ ، ص ٩٢ .

النبلاء “ للذهبي.^(٤٤) كما وردت ترجمته في ” الوافي بالوفيات “ للصفيدي.^(٤٥) ولكنه لا ينتمي للطائفة الإسماعيلية الباطنية لا من قريب ولا من بعيد!!!

وأما زعم الباحث المذكور بأن ” التعليقة “ التي حصل عليها الغزالي من شيخه لا يحصل عليها إلا من نال درجة ” المستجيب “ في الدعوة الإسماعيلية فهو أيضاً محض خيال ؛ فالكثير من المصادر تتحدث عن علماء سنين لاعلاقة لهم بالدعوة الباطنية الإسماعيلية قد أخذوا ” تعليقة “ من عالم ، أو أعطوا تعليقة لعالم ، ومثل هذا كثير في المصادر التي ترجمت لحياة عديد من العلماء. والسبكي نفسه يترجم لأحد العلماء من تلامذة الغزالي وهو علي بن سعادة أبو الحسن الجهنبي الموصلي السراج أحد علماء الموصل ، ويقول ضمن ترجمته له : ” وعلق التعليقة عن أبي حامد الغزالي “.^(٤٦) ويورد السبكي في ترجمته للغزالي قائلاً : ” قال الإمام أسعد الميهني : فسمعت يقول - أي الغزالي - قطعت علينا الطريق ، وأخذ العيارون جميع ما معي ومضوا ؛ فتبعتهم ؛ فالتفت إليّ مقدّمهم وقال : ارجع ويحك وإلاّ هلك ، فقلت له : أسألك بالذي ترجو السلامة منه أن تردّ عليّ تعلّقتي فما هي بشئٍ تنتفعون به ، فقال لي : وما هي تعلّقتك؟ فقلت : كتب في تلك المخلاة هاجرت لساعها وكتابتها ومعرفة علمها ؛ فضحك وقال : كيف تدّعي أنّك عرفت علمها وقد أخذناها منك فتجرّدت من معرفتها ، وبقيت بلا علم ، ثم أمر بعض أصحابه فسلم إليّ المخلاة “.^(٤٧) ومن هذا النص الذي أورده السبكي حكاية عن الغزالي نستطيع فهم التعليقة بأنها المخلاة التي تحتوي على مجموعة كتب أخذها من شيخه وكتبها من إملاء الشيخ له. ويورد الذهبي في ” خبر من غير “ ترجمة لأحد العلماء واسمه أبو طالب عبدالمحسن ابن أبي العميد الأبهري الشافعي الصوفي ، وقال عنه : ” وتفقه بهمدان ، وعلق التعليقة عن الفخر الرازي “.^(٤٨) ويورد ابن كثير في ” البداية والنهاية “ ترجمة لبعض العلماء واصفاً إياه بقوله : ” محمد بن عبد الحميد ابن أبي

(٤٤) انظر الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، مصدر سابق ، ج ١٨ ، ص ٥٦٤ .

(٤٥) انظر صلاح الدين خليل بن أيبك الصفيدي ، الوافي بالوفيات ، تحقيق أحمد الأرناؤوط

وتركي مصطفى ، دار إحياء التراث ، بيروت ، ٢٠٠٠ ، ج ٩ ، ص ١٣٣ .

(٤٦) السبكي ، طبقات الشافعية الكبرى ، مصدر سابق ، ج ٧ ، ص ٢٢٤ .

(٤٧) السبكي ، طبقات الشافعية ، مصدر سابق ، ج ٦ ، ص ١٩٥ .

(٤٨) شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ، خبر من غير ، تحقيق د. صلاح الدين المنجد ،

مطبعة حكومة الكويت ، الكويت ، ١٩٨٤ ، ج ٥ ، ص ٩٩ .

الحسين أبو الفتح الرازي المعروف بالعلاء العالم ، وهو من أهل سمرقند ، وكان من التحول في المناظرة ، وله طريقة في الخلاف والجدل يقال لها التعليقة العالمية^(٤٩). ويورد عبدالحكي الحنبلي في "شذرات الذهب في أخبار من ذهب" ترجمةً لمن أسماه أبا علي بن سكرة الحافظ ، وقال عنه : "وأخذ التعليقة الكبرى عن أبي علي الشاشي المستظهري"^(٥٠).

وبرغم أننا نرى أن هذا التعبير فيه الكثير من الغموض إلا أننا لا نستطيع أن نجزم بأنه مرتبط بالمصطلحات الباطنية الإسماعيلية. ولكن هل يمكننا القول إن مصطلح التعليقة ينسحب على مباحث علم الكلام وعلم الجدل والخلافيات والمناظرات. ولقد أطلنا في هذه المسألة لأهميتها وخطورتها لأن محاولة قلب الحقائق التاريخية بدون أدلة ، بل بتحويل الأدلة الواضحة ، وبتحويل المصادر التاريخية ما لم تقله هو أمر يحتاج إلى وقفة قوية تحاصره بالأدلة الساطعة. ومن هنا رأيت خطورة أن ينسب الغزالي إلى طائفة الباطنية الإسماعيلية بدون وجه حق ، وبدون أن يكلف الباحث الذي يدعي هذه الدعوى العريضة نفسه بالبحث والتقصي ليتثبت من حقائق الأمور.

ويشير الغزالي إلى التأويلات الباطنية التي يذهب إليها هؤلاء التعليمية بقوله :
 " فأما المعاد فزعم بعضهم أن النار والأغلال عبارة عن الأوامر التي هي التكاليف فإنها موظفة على الجهال بعلم الباطن ؛ فما داموا مستمرين عليها فهم معذبون ، فإذا نالوا علم الباطن وضعت عنهم أغلال التكاليف وسعدوا بالخلاص عنها ، وأخذوا يؤولون كل لفظ ورد في القرآن والسنة فقالوا : أنهار من لبن أي معادن الدين والعلم بالباطن يرتضع بها أهلها ويتغذى بها تغذية تدوم بها حياته اللطيفة فإن غذاء الروح اللطيفة بارتضاع العلم من المعلم كما أن حياة الجسم الكثيف بارتضاع اللبن من ثدي الأم ، وأنهار من خمر هو العلم الظاهر ، وأنهار من غسل مصفى هو علم الباطن المأخوذ من الحجج والأئمة"^(٥١).

ويمضي الغزالي واصفاً فضائح الباطنية قائلاً : " أما المعجزات فقد أولوا جميعها وقالوا : الطوفان معناه طوفان العلم أغرق به المتمسكون بالسنة ، والسفينة حرزه الذي تحصن

(٤٩) إسماعيل بن كثير القرشي ، البداية والنهاية ، مكتبة المعارف ، بيروت ، بدون تاريخ ، ج ١٢ ، ص ٢٥٤.

(٥٠) العكبري الحنبلي ، شذرات الذهب ، مصدر سابق ، ج ٤ ، ص ٤٣.

(٥١) أبو حامد الغزالي ، فضائح الباطنية ، تحقيق عبدالرحمن بدوي ، مؤسسة دار الكتب الثقافية ، الكويت ، بدون تاريخ ، ص ٥٧.

به من استجاب لدعوته ، ونار إبراهيم عبارة عن غضب نمرود لا عن النار الحقيقية ، وذبح إسحاق معناه أخذ العهد عليه ، وعصا موسى حجتة التي تلقفت ما كانوا يأفكون من الشبه لا الخشب. وانفلاق البحر افتراق علم موسى فيهم على أقسام ، والبحر هو العالم ، والغمام الذي أظلمهم معناه الإمام الذي نصبه موسى لإرشادهم وإفاضة العلم عليهم. والجراد والقمل والضفادع هي سؤالات موسى وإلزاماته التي سلطت عليهم. والمن والسلوى علم نزل من السماء لداع من الدعاة هو المراد بالسلوى. وتسبيح الجبال معناه تسبيح رجال شداد في الدين... الخ“ (٥٢)

أعطانا الغزالي فكرة جملة عن الباطنية في صدر كتابه المسمى ” فضائح الباطنية“ فقال : ” أما الجملة : فهو مذهب ظاهره الرّفص ، وباطنه الكفر المحض ، ومفتحه حصر مدارك العلوم في قول الإمام المعصوم ، وعزل العقول عن أن تكون مدركة للحق لما يعترها من الشبهات ، ويتطرق إلى النظّار من الاختلافات ، وإيجاب طلب الحق بطريق التعليم والتعلّم ، وحكم بأنّ المعلّم المعصوم هو المستبصر ، وأنّه مطلع من جهة الله على جميع أسرار الشرائع ، يهدي إلى الحقّ ويكشف عن المشكلات ؛ وأنّ كلّ زمانٍ لا بد فيه من إمام معصوم يرجع فيما يستبهم من أمور الدين“ (٥٣)

ويمضي الغزالي في محاكمته للباطنية على طريقة المتكلمين الأمر الذي يدلنا على مدى تأثر الغزالي بطريقة المتكلمين في المخاصمة والمحاجة في العقائد والمقولات ، يقول الغزالي : ” هذا هو المنهج الجملي في الرد عليهم إذ أبطلوا نظر العقول وهو الجزم الواجب في إفحامهم ؛ فلا ينبغي أن نخوض معهم في التفصيل بل نقصر على أن نقول لهم : كل ما عرفتموه من مذهبكم من صدق الإمام وعصمته ، وبطلان الرأي ، ووجوب التعليم بماذا عرفتموه؟ ودعوى الضرورة غير ممكنة ؛ فيبقى النظر والسمع ، وصدق السمع أيضاً لا يعرف ضرورة ؛ فيبقى النظر ، وهذا لا يخرج عنه ، فإن قال قائل : لا يُظنُّ بعاقلي يدعي مذهباً ليس ضرورياً ثم ينكر النظر فلعلهم يعترفون بالنظر إلا أنهم يقولون : تعلم طريق النظر واجب فإن الإنسان لا يستقل بنفسه في النظريات“ (٥٤)

(٥٢) الغزالي ، فضائح الباطنية ، مصدر سابق ، ص ٥٧ .

(٥٣) نفسه ، ص ٥٧ .

(٥٤) نفسه ، ص ٨٦ .

ويبدو أن الغزالي حينما طلب منه الحاكم أن يتصدى للطائفة التعليمية الإسلامية لم يجد بُدّاً من الإذعان لهذا الطلب وذلك لأن القول بإمام معصوم تأتي منه المعارف والعلوم والأوامر للناس عبر الدعاة الموثوقين في أقاليم العالم الإسلامي آنذاك إنما يمثل خطراً كبيراً على السلطة ، وعلى استقرار أمر الأمة. عند ذلك عكف الغزالي على مطالعة كتب هذه الطائفة. يقول الغزالي : ” فابتدأت بطلب كتبهم وجمع مقالاتهم ، وكان قد بلغني بعض كلماتهم المستحدثة التي ولدتها خواطر أهل العصر ، لا على المنهاج المعهود من سلفهم ؛ فجمعت تلك الكلمات ، ورتبتها ترتيباً محكماً مقارناً للتحقيق ، واستوفيت الجواب عنها ، حتى أنكر بعض أهل الحق مني مبالغتي في تقرير حجّتهم ، فقال : هذا سعي لهم ، فإنهم كانوا يعجزون عن نُصرة مذهبهم بمثل هذه الشبهات لولا تحقيقك لها ، وترتيبك إياها “.(٥٥)

يورد الغزالي حجة التعليمية بأنه لا بد من تعليم ومن معلّم ، ويرى الغزالي أن الذين يُجادلونهم في أصل هذه المقولة يخطئون ؛ فالصواب عنده هو الاعتراف بضرورة وجود المعلّم ، وضرورة أن يكون المعلّم معصوماً ، يقول الغزالي : ” بل الصواب الاعتراف بالحاجة إلى المعلّم “ ويضيف قائلاً : ” وأنه لا بد وأن يكون معصوماً “. لكن الغزالي يردّ عليهم محدداً لهم المعلّم المقصود ، وهو محمد ﷺ. ويمضي الغزالي في مجادلة الباطنية التعليمية على طريقة ” فنقلة “ المتكلمين حيث يقول : ” فإذا قالوا : هو ميت ، فنقول : ومعلّمكم غائب ، فإذا قالوا : معلّمنا قد علّم الدعاة وبثهم في البلاد ، وهو ينتظر مراجعتهم إن اختلفوا أو أشكل عليهم مشكل ، فنقول : ومعلّمنا قد علّم الدعاة وبثهم في البلاد ، وأكمل التعليم إذ قال الله تعالى : ﴿ ... الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ... ﴾ [المائدة : ٣]. يقول الغزالي للتعليمية : ” وبعد كمال التعليم لا يضر موت المعلّم كما لا يضر غيبته “.(٥٦)

ويخلص الغزالي إلى النتيجة التالية عن الباطنية : ” ... بل المقصود أن هؤلاء ليس معهم شيء من الشفاء المنجي من ظلمات الآراء ، بل هم مع عجزهم عن إقامة البرهان على تعيين الإمام ، طال ما جاريناهم فصدّقناهم في الحاجة إلى التعليم ، وإلى المعلّم المعصوم ، وأنه الذي عينوه ، ثم سألناهم عن العلم الذي تعلّموه من هذا المعلّم المعصوم ، وعرضنا عليهم إشكالات فلم يفهموها ، فضلاً عن القيام بحلّها ! فلما عجزوا أحالوا على الإمام الغائب ،

(٥٥) الغزالي ، المتقذ من الضلال ، مصدر سابق ، ص ٩٢.

(٥٦) نفسه ، ص ٩٣.

وقالوا : إنه لابد من السفر إليه. والعجب أنهم ضيعوا عمرهم في طلب المعلم في التبجح بالظفر به ، ولم يتعلموا منه شيئاً أصلاً“ .^(٥٧)

موقف الغزالي من المتصوفة :

يقول الغزالي واصفاً رحلته الفكرية ، ومبيناً دخوله إلى التصوف بقوله : ” ثم إنني لما فرغت من هذه العلوم ، أقبلت على طريق الصوفية ، وعلمت أن طريقتهم إنما تتم بعلم وعمل ؛ وكان حاصل علومهم قطع عقبات النفس ، والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى ، وتخليته بذكر الله. وكان العلم أيسر عليّ من العمل ؛ فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم مثل ” قوت القلوب “ لأبي طالب المكي رحمه الله ، وكتب الحارث المحاسبي ، والمتفرقات الماثورة عن ” الجنيد “ و ” الشبلي “ و ” أبي يزيد البسطامي “ وغيرهم من المشايخ حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية ، وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعلم والسماع ؛ فظهر لي أن أخص خواصهم ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم بل بالذوق والحال وتبدل الصفات “ .^(٥٨)

يوصل الغزالي وصفه للمتصوفة بقوله : ” فعلمت يقيناً أنهم أرباب الأحوال ، لا أصحاب الأقوال. وأن ما يمكن تحصيله بطريق العلم فقد حصلته ، ولم يبق إلا ما لا سبيل إليه بالسماع والتعلم ، بل بالذوق والسلوك. وكان قد حصل معي من العلوم التي مارستها ، والمسالك التي سلكتها ، في التفتيش عن صنف العلوم الشرعية والعقلية إيماناً يقيني بالله تعالى ، وبالنبوة ، وباليوم الآخر ، فهذه الأصول الثلاثة من الإبان كانت قد رسخت في نفسي بلا دليل محرر بل بأسباب وقرائن وتجارب لا تدخل تحت الحصر تفصيلها “ .^(٥٩)

نجبرنا الغزالي في ” المنقذ “ أن الصوفية ” هم السالكون لطريق الله “^(٦٠) و ” أن سيرتهم أحسن السير “^(٦١) و ” طريقهم أصوب الطرق “^(٦٢) و ” أخلاقهم أزكى

(٥٧) الغزالي ، المنقذ من الضلال ، مصدر سابق ، ص ٩٨ .

(٥٨) الغزالي ، المنقذ من الضلال ، مصدر سابق ، ص ١٠١ .

(٥٩) نفسه ، ص ١٠٢ .

(٦٠) نفسه ، ص ١٠٦ .

(٦١) نفسه ، ص ١٠٦ .

(٦٢) نفسه ، ص ١٠٦ .

الأخلاق“^(١٣) ومن كل هذه العبارات التي أثنى بها الغزالي على المتصوفة نلاحظ البعد الأخلاقي السلوكي التربوي الذي يضعه الغزالي نُصب عينيه ، في حين أنه عندما تكلم عن المتكلمين وعن الفلاسفة وعن التعليم كان يلتفت - كما نحسب - إلى البعد الإستمولوجي المعرفي ، وهنا يكمن عدم الاتساق المنهجي الذي ميّز حكايته لرحلته الفكرية في المنقذ من الضلال على الأقل. ومن هنا نستطيع القول إن الغزالي بدأ في المنقذ من الضلال بداية معرفية إستمولوجية بينما انتهى نهاية أخلاقية الأمر الذي يحدث في الذهن نوعاً من الارتباك. غير أن هذا الارتباك ربما يزول إذا أخذنا بتفسير الدكتور عمر النجار الذي يقول : ” وقد وجد اليقين في الحقيقة الصوفية ، وأن اليقين نورٌ يقذفه الله في الصدر ، وهذا النور هو مفتاح أكثر المعارف في نظره “^(١٤) ومن هذه الزاوية يمكننا القول إن دخول الغزالي على التصوف لم يكن من جانب أخلاقي فقط بل يحمل في طياته أبعاداً معرفية إستمولوجية. ويزيدنا النجار تفسيراً حول هذه القضية بقوله : ” وهكذا انتهى الغزالي إلى أن الكشف الصوفي أو الإلهام هو أبرز مصادر المعرفة اليقينية بعد الوحي. وهو عطاء يفيض به الله تعالى على قلب الصوفي العارف إذا ما كان العارف يملك الاستعداد لهذا الكشف الوهبي العظيم “^(١٥) نعم إن المعرفة الربانية اللدنية طريقة من طرائق المعرفة ، وأن المتصوفة يذهبون إلى القول بها ، وإلى الأخذ بها غير أن الغزالي في ” المنقذ من الضلال “ وهو يحكي رحلته الفكرية لم يوفق في عرض هذه المسألة المعرفية وهو يعرض موقفه مع المتصوفة بل كانت مناقشته - كما أسلفنا - تنحو نحو المجالات الأخلاقية السلوكية التربوية ، وكان الاتساق المنهجي يقتضي أن يناقش المرحلة الصوفية التي مرّ بها بذات الطريقة التي ناقش بها مراحلها السابقة مع المتكلمين والفلاسفة والباطنية.

لقد لحّص لنا الغزالي مراحل التصوف في التخلي عن ما سوى الله ، وهذه هي المرحلة الأولى التي تشابه تكبيرة التحريم في الصلاة ، وتأتي بعدها المرحلة الثانية وهي مرحلة الانشغال المتصل بذكر الله تعالى ، وأمّا المرحلة الأخيرة فهي مرحلة الفناء في الله. ويذكر لنا أن هذا الطريق هو قمة التزكية ، وقمة المعرفة بالحقائق الكاملة المعلقة بالعلم الإلهي ، وهو

(١٣) الغزالي ، المنقذ من الضلال ، مصدر سابق ، ص ١٠٦ .

(١٤) الدكتور عمر النجار ، نظرات في فكر الغزالي ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٩٢ ، ص ٩٦ .

(١٥) النجار ، نظرات في فكر الغزالي ، مصدر سابق ، ص ١٠٩ .

مطلوب الإمام الغزالي. ويحدثنا الغزالي أن الذين يسلكون هذا الطريق يرون مشاهدات عجيبة في أوله مثل مشاهدة الملائكة ، وأرواح الأنبياء وغيرها من المشاهدات التي تؤدي ببعضهم إلى توهم الحلول ، والاتحاد ، والوصول ، وجميعها أخطاء تحصل على هؤلاء جرّاء ما شاهدوه.^(٦٧) ونقف هنا مع نصّ النّجار إذ يقول : ” والغزالي يريد أن يعتذر عن شطحات الصّوفيّة لأنّ ما يقولونه مجرد وهم وليس بالحقيقة أبداً ، ويوضح لنا الغزالي أنّ المتصوّفة الخلص من المسلمين لم يذهبوا في التعبير عن استغراقهم التّام في الحق إلى حدّ القول بالحلول والاتحاد. والذين يزعمون أنّ ما يقولونه هو الحقيقة فهو باطل ، وهو مجرد استغراقات أو نوع من القرب يكاد يتخيّل منه طائفة الحلول ، وطائفة الاتحاد ، وطائفة الاتّصال ، وكلّ ذلك خطأ“.^(٦٨)

ويذهب أحد الباحثين إلى وصف تصوّف الإمام الغزالي بقوله : ” إنّ تصوّف الغزالي يختلف في كثير من المناحي عن تصوّف المتصوّفين الأصليين !! ؛ فتصوّف الغزالي يقوم على العلم والعقل والالتزام بقواعد الدين ، وزهداً بالدنيا ، وبعداً عن شرورها وآثامها ، وكل هذا دون التزام بمدرسة أو فئة أو نظام يقوم على قواعد أو قوانين أو مبادئ عامة تذهب في مذهبها إلى حدّ الخروج عن القواعد المألوفة التي تلزم المسلم باتباع القواعد والفرائض والسّنن“.^(٦٩) غير أن الباحث عارف تامر برغم أنّه يجعل من تصوّف الغزالي في نصّه السابق تصوّفاً معتدلاً وموافقاً للشّرع إلّا أنّه لا يخلو من شيء من التناقض في النصّ التالي الذي ساقه في كتابه حيث يقول : ” صوفيّة الغزالي مشروعة ومقبولة ، وقد تلتقي بصوفيّة الكثير من رهبان الأديرة والصّوامع المسيحيين واليهود والهنود ، كما تتفق في العديد من المطارح مع آراء فلاسفة الإسماعيليين وعليّ رأسهم الكرمانى“.^(٧٠)

بيان حقيقة النبوة عند الغزالي :

بعد أن طوّف الغزالي مع الفرق المختلفة التي أوردها في ” المنقذ من الضلال “ رجع إلى حقيقة النبوة ، وإلى أهميتها في معرفة حقائق الأشياء. لقد قبل الغزالي من خلال رحلته المعرفيّة أربعة مصادر للمعرفة : الحواس ، العقل ، والذوق ، والنبوة. ولقد بيّن الغزالي أنّ

(٦٦) الغزالي ، المنقذ من الضلال ، مصدر سابق ، ص ١٠٧ .

(٦٧) النجار ، نظرات في فكر الغزالي ، مصدر سابق ، ص ١١١ .

(٦٨) عارف تامر ، الغزالي بين الفلسفة والدين ، مصدر سابق ، ص ٩٦ .

(٦٩) عارف تامر ، الغزالي بين الفلسفة والدين ، مصدر سابق ، ص ٩٤ .

الحواس قاصرة ، ومحدودة ، وخادعة. وبين أن حاكم العقل حكم بخطأ معلومات الحواس بها عنده من ملكة ، ومعرفة. ووجد أن العقل قاصر عن معرفة كثير من الأمور خاصة تلك المتصلة بالغيبات ، وبالأمر التي ليس بالإمكان خضوعها للتجربة. يقول الغزالي : ” فمن الأحكام النجومية ما لا يقع إلا في كل ألف سنة مرة ؛ فكيف يُنال ذلك بالتجربة؟ “^(٧٠)

يرى الغزالي أن مثل هذه المعلومات التي لا تخضع للعقل البشري ، ولا تقع في نطاق المعرفة الإنسانية لا يمكن الوصول إليها إلا عن طريق النبوة. يقول أبو حامد : ” إدراك هذا الجنس الخارج عن مدركات العقل إحدى خواص النبوة ، ولها خواص كثيرة سواها “^(٧١)

يؤكد الغزالي على أهمية دور النبوة بقوله : ” ووراء العقل طور آخر تنفتح فيه عين أخرى يبصر بها الغيب وما سيكون في المستقبل ، وأمور آخر العقل معزول عنها كعزل قوة التمييز عن إدراك المعقولات ، وكعزل قوة الحس عن مدركات التمييز ؛ فالنبوة أيضاً عبارة عن طور يحصل فيه عين لها نورٌ يظهر في نورها الغيب ، وأمورٌ لا يدركها العقل “^(٧٢)

والغزالي - كما أخرج علم النجوم من دائرة العقل والتجربة - فإنه أخرج أيضاً علم الطب من دائرة التجربة ، وجعل هذين العلمين من العلوم والمعارف التي لا يحصل عليها الإنسان إلا بإلهام وتوفيق من جهة الله ، ولا سبيل إليهما بالتجربة!!!^(٧٣)

إن الغزالي في هذا النص من ” المنقذ “ يجرد العقل من هذه العلوم التي تخضع للملاحظة والتجربة والحس ، وهي وسائل دون مرتبة العقل ، ولكنه يرفعها فوق مستوى العقل ، ويجعلها في مستوى المعارف الكبرى التي لا يتمكن منها الإنسان دون إلهام إلهي وتوقيف. ومن الواضح أن الغزالي جرد العقل من معرفة أمور الغيب ، بل وجرده من معرفة النبوة ، ومن تصديقها ؛ فلا يصدق الإنسان إلا بعد فهم ، ولا يفهم إلا بعد ذوق ، ومن هنا فإن معرفة النبوة عند الغزالي لا تكون بالعقل ، بل تكون بالذوق ؛ فهذا هو يقول في ” المنقذ “ : ” فإن كان للنبي خاصة ليس لك منها أنموذج ، ولا تفهمها أصلاً ، فكيف تصدق بها؟ وإنما التصديق بعد الفهم ، وذلك الأنموذج يحصل في أوائل طريق التصوف ،

(٧٠) الغزالي ، المنقذ من الضلال ، مصدر سابق ، ص ١١٢ .

(٧١) الغزالي ، المنقذ من الضلال ، مصدر سابق ، ص ١١٢ .

(٧٢) نفسه ، ص ١١١ .

(٧٣) الغزالي ، المنقذ ، مصدر سابق ، ص ١١٢ .

فيحصل به نوع من الذوق بالقدر الحاصل ، ونوع من التصديق بما لم يحصل بالقياس . فهذه الخاصية الواحدة تكفيك للإيمان بأصل النبوة^(٧٤) .

وإذا كان النص الذي سقناه آنفاً يجعل من ” الذوق ” حاكماً على فهم النبوة ومن ثم على التصديق بها ، فإننا أمام نص آخر في المنقذ من الضلال يثير إشكالات ؛ فهو يقول عن النبوة والنبى : ” وإذا نظر إلى عجائب ما ظهر عليه من الأفعال ، وإلى عجائب الغيب الذي أخبر عنه في القرآن على لسانه ، وفي الأخبار ، وإلى ما ذكره في آخر الزمان ، فظهر ذلك كما ذكره ، علم علماً ضرورياً أنه بلغ الطور الذي وراء العقل ، وانفتحت له العين التي ينكشف منها الغيب الذي لا يدركه إلا الخواص ، والأمور التي لا يدركها العقل . فهذا هو منهج العلم الضروري بتصديق النبي ﷺ فجرّب ، وتأمل القرآن ، وطالع الأخبار ، تعرف ذلك بالبيان “^(٧٥) .

من خلال محاولتنا فهم هذه النصوص التي يوردها الغزالي نطمح أن نفهم موقفه من العقل ، ومن الذوق ، ومن النبوة ؛ فالنبوة هي خاتمة المطاف الذي وصل إليه الغزالي ، واعتمد في ذلك على ” الفهم ” و ” الذوق ” ؛ فالفهم يأتي بعد الذوق . وهو يجعل من التذوق الصوفي أنموذجاً للخاصية النبوية ، ويكون ذلك في أول مراحل طريق التصوف . والغزالي في كل ما تقدم من أطروحاته الفكرية يذهب إلى تجاوز العقل المجرد ، ويعلي من جوانب الاتجاه التذوقي الذي يراه أمثل السبل في الوصول إلى الحقيقة .

خاتمة :

من خلال ما تقدّم من معالجة للرحلة الفكرية للإمام الغزالي في كتابه ” المنقذ من الضلال ” نجد أنّ هذه الرحلة والترجمة الفكرية والمعرفية لحياته جاءت مختصرة اختصاراً أخل بها ، ولعله لجأ لهذا الاختصار لأنه عالج موضوعاتها في مصنفات أخرى ، ولكن ذلك لا يعفيه من ضرورة وصف رحلته الفكرية بدقة لأنها تمثل نموذجاً من النماذج القليلة التي قدّمها العلماء عن أنفسهم ؛ فهي بمثابة اعتراف فكري معرفي عقائدي بالغ الأهمية . فالغزالي - من خلال وقوفنا معه في رحلته - تبين لنا أنه قيد العقل باعتباره مصدراً من مصادره المعرفية ، وأنه قال بمحدودية العقل ، وعدم قدرته على إدراك أمور الغيب والمستقبلات بمفرده ،

(٧٤) الغزالي ، المنقذ ، مصدر سابق ، ص ١١٢ .

(٧٥) الغزالي ، المنقذ مصدر سابق ، ص ١٢٩ .

ويعزل عن مصادر المعرفة الأخرى ، وأنه لجأ إلى دائرة ”العرفان“ و”الإلهام“ و”التذوق“ لحل كثير من القضايا المعرفية والأخلاقية والسلوكية التي اعترضت مسيرة حياته الفكرية. وهو عندما رجع إلى حقيقة ” النبوة “ وإلى أهميتها ، وإلى دورها المعرفي بالنسبة للإنسان ، حدّد حقيقتها بواسطة ” الذوق “ ، وبين أنّ تصديق النبوة لا يكون إلّا بعد الفهم ، وأنّ الفهم لا يكون إلّا بعد الذوق ، ولا يكون الذوق إلّا بسلوك طريق التّصوّف.

مصادر الدراسة

- (١) الدكتور حسن الفاتح قريب الله ، دور الغزالي في الفكر ، ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨ ، مطبعة الأمانة ، ٢ شارع جريرة بدران ، شبرا ، مصر.
- (٢) عبدالحلي بن أحمد بن محمد العكبري الحنبلي ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، تحقيق عبدالقادر الأرناؤوط ، ومحمود الأرناؤوط ، دار ابن كثير ، دمشق ، ١٤٠٦هـ.
- (٣) الدكتور علي حسني الخربوطي ، الحضارة العربيّة الإسلاميّة ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، ١٩٩٤م.
- (٤) عبدالرحمن بن محمد بن خلدون ، مقدّمة ابن خلدون ، بدون مكان طبع ، وبدون تاريخ.
- (٥) سليمان دنيا ، الحقيقة في نظر الغزالي ، سلسلة مكتبة الدراسات الفلسفيّة ، الطبعة الرابعة ، دار المعارف ، مصر ، بدون تاريخ.
- (٦) شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
- (٧) شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي ، خبر من غير ، تحقيق د. صلاح الدين المنجد ، مطبعة حكومة الكويت ، الكويت ، ١٩٨٤.
- (٨) محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي ابن القيم ، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين ، دار الكتاب العربي ، الطبعة الثانية ، بيروت ، ١٩٧٣.
- (٩) تاج الدين بن عليّ بن عبدالكافي السُّبكي ، طبقات الشّافعيّة الكبرى ، تحقيق د. محمود محمد الطّناحي ود. عبدالفتاح محمد الحلو ، هجر للطباعة والنّشر والتّوزيع ، ١٤١٣هـ.
- (١٠) صالح أحمد الشّامي ، الإمام الغزالي حجّة الإسلام ومجدد المائة الخامسة ، الطبعة الأولى ، دار القلم ، دمشق ، ١٩٩٣.

- (١١) الدكتور صبحي الصالح ، النظم الإسلامية نشأتها وتطورها ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٨٢ .
- (١٢) صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي ، الوافي بالوفيات ، تحقيق أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى ، دار إحياء التراث ، بيروت ، ٢٠٠٠ .
- (١٣) عارف تامر ، الغزالي بين الفلسفة والدين ، رياض الرئيس للكتب والنشر ، لندن ، ١٩٨٧ .
- (١٤) الدكتور عمر النجار ، نظرات في فكر الغزالي ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٩٢ .
- (١٥) محمد بن محمد بن محمد الغزالي أبو حامد ، إحياء علوم الدين ، دار المعرفة ، بيروت ، بدون تاريخ .
- (١٦) أبو حامد الغزالي ، المنقذ من الضلال والوصل إلى ذي العزة والجلال ، حققه وقدم له الدكتور جميل صليبا والدكتور كامل عياد ، الطبعة السابعة ، دار الأندلس للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، ١٩٦٧ .
- (١٧) أبو حامد الغزالي ، فضائح الباطنية ، تحقيق عبدالرحمن بدوي ، مؤسسة دار الكتب الثقافية ، الكويت ، بدون تاريخ .
- (١٨) إسماعيل بن كثير القرشي ، البداية والنهاية ، مكتبة المعارف ، بيروت ، بدون تاريخ .
- (١٩) أبوبكر محمد الكلاباذي ، التعرف لمذاهب أهل التصوف ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٠ .